الشباب والفراغ والجدة

للأستاذ مصطفى القوني

[هذه الكلمة هي خاتمة الفصل الأخير من الطبعة الثانية من كتاب « الأثمان : عرض جديد لأصول علم الاقتصاد » الذي طبع في دار الرسالة وظهر في هذا الأسبوع عن مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة]

يصل المجتمع إلى أقصى قدر من الرفاهية الاقتصادية إذا استغل موارده على النحو الذي يتيح له أقصى قدر من الشباب والفراغ والجدة . ونعني بالجدة الثروة . ونعني بالفراغ أن يقصر وقت العمل بالقدر الذي يهيىء للناس التمتع بثمرات عملهم . ونعني بالشباب علو مستوى الصحة العامة ، لأنه لا خير في العيش إذا فسدت آلته ، وآلة العيش صحة وشباب .

والمشكلة الاقتصادية هي مشكلة قلة الوقت والموارد ، فاذا استطاع المجتمع أن يستغلها أفضل استغلال خفف من حدة قلتها وفاز من القليل بالكثير .

جند الفرنسيون جنودهم ، وقبضوا على زعماء الحزب وشردوهم ونفوهم ، ثم أطلقوا يد السنغاليين في كل المدن والقرى ، فثلوا مأساة يندى لها جبين الإنسانية ، ومنعت الإدارة الفرنسية عن المدن والقرى مواد التموين الضرورية والماء والنور . ولكن المراكشيين ثاروا في وجه الفرنسيين وحلفائهم السنغاليين ، فوقعت معارك طاحنة سقط فيها مئات المراكشيين ضحية دفاعهم عن حريتهم واستقلالهم ، وحكم بالإعدام على كثير من الوطنيين وبالنفي والسجن مع الأشغال الشاقة على كثير غيرهم ولا يزال زعيم الحزب أحمد بلا فريج منفياً بجزيرة كورسيكا برغم إصابته بأمراض خطيرة . ولكن الحركة لم تمت بل ازداد الشعب إيمانا بحقه في الحياة الحرة الكريمة ولا يزال يعمل برغم ما ينتابه من نكبات إلى أن يصل ، وسيصل ...

عبد الكريم غلاب

ولكن الثروة والفراغ والقدرة على الاستمتاع وإن كانت نعمة حين تتاح للناس في مجموعهم ، فإنها تنقلب نقمة إذا اختص بها أفراد دون آخرين ، نقمة تفسر قول من قال :

« إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسده ! »

ولنرو الآن طرفاً من مفاسد تباين ثروات الناس وتباين دخولهم .

إن ثروات بعض الناس تغنيهم عن السعي لكسب أرزاقهم ، ويعيش مثل هؤلاء عيشة بطالة اختيارية . وليس للبطالين ما يشغلهم غير الجري وراء حوافز الاستمتاع ومثيرات الشهوات . فهم يخلقون لأنفسهم « حاجات » ثم يجرون وراء إشباعها . ويقبل البطالون على شرب الخمر ، مثلا ، تزجية للفراغ وهرباً من السأم واللالة ، ولكن غيرهم يحاول أن يجري مجراهم فتشيع المفاسد بين العامة الذين يحاولون أن يتشبهوا بالخاصة وإن لم يكونوا مثلهم[1] .

ومن هنا كان توجيه جانب من نشاط المجتمع الاقتصادي إلى إشباع « حاجات » البطالين ومن يجرون مجراهم . والنشاط الاقتصادي ، أو السعي للرزق ، عبارة عن صنع أشياء أو أداء خدمات يطلبها أناس ويدفعون نظيرها « ثمنا » . وإقبال الناس على شرب الخمر يدفع غيرهم إلى التوسل للعيش بالخدمة في المواخير وطالب القوت ما تمدى .

وبعض من ينظرون في كتب الاقتصاد نظرات عابرة ، ينعون على الاقتصاديين اعتبارهم الرغبات المحرمة والسافلة « حاجات » وينعون عليهم وصف ما يسد هذه الرغبات بصفة « المنفعة » . ولكن الاقتصاديين يحللون النظام الاقتصادي ، بما فيه من خير وشر ، ويحاولون تفسير دوافع السعي للرزق وغايات هذا السعي . ويسعى المرء للرزق بالقيام بعمل « يطلبه » غيره ويدفع فيه « ثمناً » وتدفع الناس ثمناً لما يطلبونه لأنهم يرون فيه منفعة ، أي صلاحية لسد رغبة ؛ وقد تكون هذه الرغبة عالية أو سافلة ، حلالا أو حراماً ، خيراً أو شراً ، ضرورة أو ترفاً . وإهمالنا دراسة الحاجات التي يجري بعض الناس وراء إشباعها ، بالرغم من أن

(١) انظر لرفنج فيشر : مبادىء الاقتصاد الأولية . ص ٤٩٤ وما بعدها .

فى هذا المجرى خروجاً على مبادىء الدين والخلق ، نقول إن إهمال هذه الحاجات هروب من الواقع الذى نتناوله بالتحليل للكشف عن علله وأسبابه وهل يتورع من يقومون ، فى المعامل ، بتحليل فضلات الإنسان أو الحيوان ، عن مسها لقذارتها أو لنجاستها ؟

ولنعد إلى مساوى تباين ثروات الناس . إن الإفراط فى الغنى كالإفراط فى الفقر ، نقمة على صاحبه . وإن أحس الفقير ألم الجوع فان الغنى قد يصاب بالتخمة . وإن لم يجد المعدم ما يستر عريه فان إفراط الثرى فى التأنق يحمله مما كان حرياً به أن ينأى عنه . وإن كانت مساكن العامة تزدحم بهم ازدحاماً ، فان عناية الخاصة بمساكنهم الرحيبة تشغل بالهم بما لا طائل وراءه .

وانقسام الشعب شعبين ، أغنياء وفقراء ، جناية على الأخلاق ، وبنات المعدمين فريسة سهلة لإغراء الثرين وسماسرتهم الذين يتوسطون بين من يبعن أجسادهن وأرواحهن وبين من يشترونها .

وتحاول الديمقراطية السياسية أن تسوى بين الناس ، وإن اختلفت أقدارهم فى المجتمع ، وذلك بأن تجعل لكل فرد صوتاً واحداً فى انتخاب السلطات الحاكمة . ولكن الناخبين عرضة لإغراء مرشحى المجالس النيابية الذين يحاولون ، وقد ينجحون ، شراء أصواتهم بالمال . وليس من السهل سيادة الديمقراطية ما لم تدعم الديمقراطية السياسية ديمقراطية اقتصادية .

ثم هناك ما يجرى من سباق بين الثرين : سباق غايته الخيلاء والزهو الذى لا ينتهى إلى نهاية . وتسابق أفراد الطبقات الموسرة فى مظاهر الغنى مصدر هم لهم ، لأن كلا يسابق ويخاف أن يسبقه غيره . ومن سلع الترف ما يكاد يكون كل الغرض منه مجرد الزهو ، ومن السيدات من تقتنى جواهر نادرة ، تخاف عليها من السرقة فتصنع لها من الحلى المصطنعة نسخة تطابق الأصل ، وتخزن الجوهر النادر فى خزانتها وتتحلى فى زينتها بالحلى الزائفة . ومن جامعى روائع فن التصوير من يستأجر خبيراً يتعرف له أصالة الصور التى يقبل على شرائها ، لأنه يشتريها لا من إحساس بجمالها وإنما عن اعتزاز بمقدرته على شرائها .

وقد يرد على ما قدمناه من أمثلة على مساوىء توزيع الثروة ، بأن الإقبال على شراء شىء ، أيا كان هذا الشىء ، يدفع إلى عمالة بعض الناس ويسرع من دوران عجلة النشاط الاقتصادى ويشيع الرخاء . ولكن ليس سواء أن يعمل أناس فى صنع الخمر أو أن يعملوا فى صنع الخبز . وليس سواء أن يشتغل المرء بتجارة الماشية أو بتجارة الرقيق وإنه لإسراف ، ومفسدة أى مفسدة ، أن تحول بعض موارد المجتمع من إنتاج ما يسد الحاجات الضرورية لجمهرة الناس إلى إنتاج ما يشبع نزوات البطالين والمترفين .

وتقليل التفاوت بين الدخول يقلل من الظلم الاجتماعى ويهيىء الفرصة لزيادة رفاهية المجتمع . والقضاء على تباين توزيع الثروة ، وعلى تفاوت الفرص ، قد يكون عن طريق الثورة كما قد يكون عن طريق التطور التدريجى ، ولكل من السبيلين أنصار .

وتتدخل الحكومة محاولة إصلاح ما فسد ، وتفرض ضرائب على الموسرين والقادرين على تحمل عبء الضريبة ، وتنفقها على ما يعود بالخير على الجميع . وكلما زاد تدخل الحكومة فى هذا الشأن قل المدى بين الثورات المختلفة والدخول المختلفة ، وسار المجتمع خطوة نحو تحقيق العدالة الاجتماعية .

مصطفى الفوتى

مطبعة الرسالة :

تقدم قريباً

أحمد عرابى

الزعيم المفترى عليه

للأستاذ محمود الخفيف